Studies in Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع

الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation/bereishit/the-art-of-listening/

"بِرِيشِيت" **هو أوّل نصّ توراتيّ أسبوعي، وبحسب برنامج القراءة الأسبوعية لأسفار التوراة الخمسة فإنه يُقرأ في كافة أنحاء العالم لكل الطوائف اليهودية خلال فترة عيد سِمحاة توراة (أي فرحةُ قراءة التوراة مُجدّداً) والذي يهِلّ بعد انقضاء عيد العُرش اليهودي وهذا النصّ الأسبوعي يشكل بداية سِفر بِرِيشِيت (أو سِفر التّكوين) من التوراة، ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المَقطع الأوّل (الإصحاح الأوّل) ويَنتَهي بالآية الثامِنة من المقطع السّادِس.**

فَنُّ الإصْغاء

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

ما هوَ أوّلُ ذنْب ارتكبهُ الإنسان؟ وما ماهِيّةُ شجرةِ معرفة الخير والشّر؟ وهل هذا الشكل من المعرفة سيّءٌ إلى درجةٍ يكون فيها محظوراً على مخلوقات اللّه عزّ وجلّ؟ هل كانَت المعصية هي الوَسيلة الوَحيدة لاكتساب تلك المعرفة؟ أليسَ التَّمييز بين الخير والشر أمراً ضرورياً بالنسبة للبشر؟ ألا تُعتبرُ القدرة على التمييز بينهما من أعلى درجات ومراتب المعرفة؟ إنّ الله عز وجلّ يريدُ للإنسانِ أن يمتلك تلك القدرة بكلّ تأكيد، لكن إن كان هذا الافتراض صحيحاً فلماذا حرّم عليهم ثمر تلك الشجرة التي تمنحهم تلك القدرة؟ على أية حال، ألم يكن آدم وحَفّاه/حواء يعلمان مُسبقاً هذا الأمر قبل تناولهما الثمر المحرّم، خاصة وأنهما خُلِقا **"**بصورتِه كَشَبَهِهِ مسَلّطاً**"***

وممّا لا شك فيه أن قدرة آدم وحَفّاه على المعرفة قد تجلّت في الأمر الإلهي الذي وجّههُ لآدم وحَفّاه مُباركاً إياهُ حين قال **"أثمِروا وأكثِروا"**، وأن يَفرضا سُلطتهما على الطبيعة، وألا يأكُلا من ثمار شجرة معرفة الخير والشّر. في الوقت نفسه فإن البعض يجب عليه أن يعلم ماهيّة الخير الكامن في طاعة الأوامر الإلهية، وماهيّة المضرّة في عدم طاعتها حتى يتمكّن من فهم الأوامر نفسها. بالتالي يُمكننا الجزم بأنهما - على الأقل – كانا يمتلكان شكلاً من أشكال القدرة على إدراك الفرق بين

الخير والشر. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هُنا: طالما أنهما يمتلكان تلك القدرة، فما الذي تغيّر عندما تناولا الثمر المحرّم؟ إن الإجابة على هكذا أسئلة تتطلب عُمقاً شديداً لدرجة أن العثور على الإجابات قد يجعلنا عاجزين عن استيعاب هذه القصة بأكملها.

وبالفعل، كان هذا ما أدركه الحاخام اليهودي المعروف موشيه/موسى بن ميمون، الأمر الذي جعله يتطرّق لهذه الجزئية من القصة في بداية كتابه *"دلالة الحائرين"* (في الفصل الثاني من الكتاب الأول). في الوقت نفسه كانت إجاباته عن ذلك السؤال مُبهمة ومُحيّرة إلى حدٍّ ما، حيث وضّح بأنّ آدم وحَفاه كانا يَمتلكان القدرة على التمييز بين الخطأ والصوّاب قبل تناول الثمر المحرم، لكن ما اكتَسَباه من تناوله كان إدراكَهُما "للأمور المُتعارف عليها أنها مَقبولة"[1]. فلنتوقف هنا للحظة لِنسأل ماذا كان يقصد الحاخام موشيه/موسى بن ميمون حين قال "الأمور المُتعارف عليها أنها مَقبولة"؟ على سبيل المثال لا الحصر، من المتعارف عليه بين البشر أن قتل الإنسان هو فعل شرّير، وأن الصّدق هو فعلٌ خيّر، بالتالي هل كان يقصدُ أن الأخلاق بشكل عام هي بمثابة عقدٍ اجتماعيّ مُتّفقٍ عليه بين البشر؟ بالتأكيد لم يقصد ذلك.

ما قَصَدَهُ حينها هو أنَّ آدم وحَفاه بعد تناولهما للثمر المحرم قد شعرا بالخجل لكونهما عاريين، وهذا بحدّ ذاته يُشكّل جُزءاً من عقدٍ اجتماعي مُعيّن بين البشر، خاصة وأنه يوجد من لا يرى أن التعرّي هو فعل مُخجل ومُشين. لكن السؤال الذي يطرح نفسه مرة أخرى هنا: كيف بإمكاننا إيجاد العلاقة بين شعور المرء بالخجل لكونه عارياً، وبين التمييز بين "الخير والشر"؟ للوهلة الأولى يبدو أنه لا يوجد أي علاقة بين الموضوعين، لأن الإجماع البشري حول ارتداء الملابس من عدمه يرتبطُ بالجمال وفلسفته أكثر من ارتباطه بالأخلاق.

بصراحة، ظلّت هذه القضيّة غامضة جداً بالنسبة لي حتى قرأت عن موقفٍ تاريخيّ مُذهل أعْتَبِرُه من أروع المواقف التي شهدتها الحرب العالمية الثانية، فبعد الهجوم على بيرل هاربر في شهر كانون الأول/ديسمبر 1941م أدركَت القوات الأمريكية أنها بصدد خوض حربٍ ضد اليابان، وهي دولة ذات ثقافة غامِضة ومُبهمة بالنسبة للأمريكيين. لهذا استعانوا بالباحثة روث بنديكت التي تعتبرُ واحدة من أفضل الخبراء في علم الإنسان في التاريخ المعاصر حتى توضّح لهم ماهيّة الثقافة اليابانية، وهذا ما قامت به فِعلاً.

وبعد انتهاء الحرب نشرت الباحثة روث بنديكت كتاباً يشرحُ رؤيتها للعديد من القضايا أطلقت عليه اسم (***The Chrysanthemum and the Sword***) أي "الأقحوانُ والسّيفُ"[2]، وكان أحد أبرز المواضيع التي تناولتها في الكتاب هو الفَرق بين الثقافات التي يرتكزُ فيها سلوكُ الفرد على إحساسه بالذَّنْب (أو ثقافة الذّنب)، والثقافات التي يرتكزُ سلوك الفرد فيها على شعورهِ بالخِزي والعار (أو ثقافة الشرف والعار)، فالقيمةُ العُليا لأبناء هذه الثقافة هي الشرف، أما في ثقافة الذنب فإن القيمة العُليا هي الاستقامة والصّلاح.

وبالنسبة لثقافة الشرف والعار فإنّ الشعور بالخِزي نابعٌ من إحساس الفردِ بفشله في تحقيق ما يتوقّع الآخرون منه تحقيقه، في المُقابِل، فإن شعور الفردِ بالذنب في ثقافة الذنب نابعٌ من إحساس الفرد بالفشل في تحقيق ما يُمليه عليه ضَميره، بالتالي فإن الفرق الرئيسي بين الثقافتين هو أن الشعور بالخزي والعار مصدرهُ الآخرون، بينما الشعور بالذَّنْب مصدره الفردُ نفسه.

وفي هذا السياق، يوضِّحُ عدد كبير من الفلاسفة وعلى رأسهم برنارد وليامز بأن ثقافة الشرف والعار تتمحورُ بشكل رئيسيّ على المظاهر، فشعورُ الفرد بالخزي والعار يرتبطُ بأمور ظاهرية مثل الصورة التي يظهر بها - أو التي يعتقدُ أنه يظهرُ بها - في عيون الآخرين. إذ يتمنى المرء عند شعوره بالخزي والعار أن تنشقّ الأرض وتبتلعهُ حتى لا يكون في مثل هذا الموقف، أو لو أنه كان موجوداً في أي مكانٍ آخر غير هذا المكان. في المقابل، نجدُ أن شعور الفرد بالذنب هو شعورٌ داخليّ ذاتيّ إلى أبعد حد، حيث لا يُمكن للفرد أن يهربَ من تأنيب ضميره سواءً كان موجوداً في هذا المكان أو في أي مكانٍ آخر، لأن ضميره يلاحقه في كل مكان يذهب إليه، سواءٌ أرآه الآخرون أم لا. لهذا يُمكننا تلخيص الفرق الجوهري بين الثقافتين بالآتي: إن ثقافة الذنب هي ثقافةٌ أساسها "الأُذُن"، بينما ثقافة الشرف والعار هي ثقافة أساسُها "العين".

وبعد أن فهمنا الفرق الجوهريّ بين الثقافتين يُمكننا العودة إلى قصّة آدم وحَفاه مع الثمر المحرّم وأول ذنب اقترفه البشر حتى نفهم ما حدث حينها، لأن الفكرة المركزية في فهمها ترتبطُ بالمظهر الخارجي وشعورِهما بالخِزي والعار. واستناداً إلى أحداث القصّة يقولُ سِفرُ التكوين في الآية الخامسة من المقطع الثالث: **"لأَنَّ اللَّهَ عالِمٌ أَنَّ فِي يَومِ تأكُلانْ مِنها تَنْفَضُّ عُيونُكُما، وتكُونانْ كَالمَلائِكة عارِفَيْنَ الخَيرَ والشَّرَّ زِيادةً "**، وهذا ما حدث بالضّبط حينها تبعاً للآية السابعة من نفس المقطع: **"فانْفَضَّت عَيناهُما، فَعَلِما أَنَّهُما عَريانانِ..."**. وينبغي التنبيه كذلك إلى أن الأمر الذي تُركّز عليه التوراة في خضمّ الحَديث عن هذه القصة هو الصورةُ التي تظهرُ بها الشجرة، حيثُ تقولُ الآيةُ السادسة من نَفس المَقطَع: **"فَلَمّا رَأَتِ المَرْأَةُ أَنّ الشَّجَرَةَ طَيِّبَةُ المَأْكَلِ وشَهيّةُ المَنْظَرِ وَمَنى لِلعَقلِ..."**.

بالتالي فإن العاطفة المركزية في هذه القصة تتمثّلُ في شُعورهما بالخِزي، إذ قبلَ تناول الثمر المحرم كان آدم وحَقّاه عُراةً لا يرتدون أي ثياب بحسب ما تُخبرنا الآية الخامسة والعشرين من المَقطع الثاني: **"فَكانا جَميعاً عَريانَيْنِ ...ولَم يَحْتَشِما..."**، أي أنهما لم يَشعُرا بالخِزي أو الخجلِ من ذلك، أما بعد تناولها للثمر المحرم شعرا فوراً بالخِزي والخجل من كونهما عارِيَين، فَسارعا إلى الاختباء ومداراة عورَتيهما **("فَخَيَّطَا مِنْ وَرَقِ الْتِينِ وَصَنَعَا لَهُمَا مَيَازِرًا")**. بالتالي لو قُمنا بتحليل عناصر القصة جميعها بدءاً من الثمر المحرم والشجرة، مروراً بآدم وحَقّاه وكونهما عارِيَين، وانتهاءً بما شَعرا به من خِزي وخجل، فإنه سيبدو لنا لوهلة أن القصة ترتبط بثقافة الشرف والعار أكثر من ارتباطها بثقافة الذنب.

لكن في الوقت نفسه فإننا نؤمن في الديانة اليهودية بأن اللّه سبحانه وتعالى يُسمعُ، ولا يُرى، تبعاً لما سمِعه آدم وحَقّاه بحسب ما تذكرُه التوراة في الآية الثامنة من المقطع الثالث: **"فَسَمِعا صَوتَ اللّه سبحانه وتعالى ماراً فِي الجِنانِ بِرِفقِ بِحَرَكةِ النّهارِ..."**، وبحسب الآية العاشرة من المقطع الثالث فقد رَدّ آدمُ على اللّه عز وجلّ قائِلاً: **"إِنّي سَمِعتُ صَوْتَكَ فِي الْجِنانِ واتَّقَيْتُ إِذْ أَنا عَرْيانٌ فَاخْتَبَأْتُ"**. فلننتبه قليلاً إلى التهكّم والسخرية المُتعمّدة بل والمُضحكة فيما فعله آدم وحَقّاه: لقد سمِعا صوت اللّه سبحانه وتعالى فسارعا إلى الاختباء منه خلف أشجار الجنة! وهذا ما ذكره المقطع في الآية الثامنة: **"فاخْتَبَأَ آدمُ وزَوْجَتُهُ حَياءً مِنْ بَينِ يدَي اللهِ فِيما بَينَ شَجَرِ الجِنانِ"**.

لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هُنا: كيف بإمكانِهما الاختباء ومداراة أنفسهما من الصوت؟ فَالاختباءُ يعني الإختفاء عن الأنظار، وهو ردّ فعلٍ تلقائي بديهيّ لشعور المرء بالخجل والخِزي. لكن التوراة تُعتبرُ من أبرز الأمثلة على ثقافة الذنب، لا ثقافة الشرف والعار. بالتالي لا يمكن للمرء الهروب من شعوره بالذنب عبر التخفّي والاختباء، لأن الشعور بالذنب ليس له علاقة بالمظهر، بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالضمير، أي صوت اللّه سبحانه وتعالى في نفوس وقلوب البشر.

ومن هذا المُنطلق يُمكننا القول بأن أول ذنْب ارتكبه البشر في جنة عدن كان أنهم اتّبعوا عيونهم، لا آذانهم. لقد كانت أفعالهم وتصرفاتهم محكومة بما رأوه من جمال وسحر لتلك الشجرة، لا بكلام اللّه عزّ وجلّ حين أمرهم ألا يأكلا من ثمرها، فكانت النتيجة هي اكتسابهما للقدرة على التمييز بين الخير والشرّ، لكن طريقة اكتسابِهما لتلك القدرة كانت خاطئة.

لقد أدرك آدم وحَقّاه حينها معنى شعور المرء بالخِزي والعار، لكنهما لم يُدركا معنى شعور المرء بالذنب، وأدرَكا معنى المظهر الخارجي لكنهما لم يُدركا معنى الضمير، وهذا - من وجهة نظري - ما قصده الحاخام موشيه/موسى بن ميمون حين تحدّث عن التمييز بين الخطأ والصواب و"الأمور المُتعارف عليها أنها مَقبولة" إن شعور المرء بالذنب نابعٌ من وازع داخليّ يقول لهُ بمنتهى الوضوح "هذا خطأ، وهذا صواب"، لكن شعور المرء بالخزي نابعٌ عن وجود عقدٍ اجتماعيّ مُحدد بين البشر، فهذا الشعور قائم على مدى إحساس الفرد بالنجاح أو الفشل في تحقيق ما يتوقع الآخرون منه تحقيقه.

إن ثقافة الشرف والعار هي ثقافة تقوم بالأساس على الامتثال للقواعد والضوابط الاجتماعية لتلك الثقافة، إذ يتفاعل أبناء تلك الثقافة اجتماعياً مع بعضهم البعض على أساس قبولِهم لتلك القواعد والضوابط، فعلى سبيل المثال يشعرُ الفرد المُنتمي لتلك الثقافة بالخِزي – وهو شكل بارزٌ من أشكال الخجل – نتيجة عدم امتثاله لتلك القواعد والضوابط، لأنهُ يُدركُ في قرارة نفسه أنه سيصبح عديم الشرف وسيخسر ماء وجهه بين أبناء ثقافته في حال علِموا بِعدم التزامه بتلك الضوابط.

لكن الديانة اليهودية بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع، لأن اليهودَ لا يأبهون كثيراً بِـ " مظهرهم في عيون الآخرين" على الإطلاق. وهنا نستذكر قصة أبينا أفْرهام/ إبراهيم التي أخبرنا بها كبار الحاخامات، حين قرّر أن يكون لوحدهِ في كفّة، وبقية البشرية في الكفّة الأخرى. وتبعا لكتاب إِستِر (الآية الثامنة من المقطع الثالث) يقول هامان واصِفاً اليهود: "وَسُنَنُهُم مُغايرةٌ لِجَميعِ الشُّعوب..."، وهذه بالفعل صفاتُ اليهود الذين لطالما كانوا مُتمرّدين رافضين للخضوعِ والانصياع لعبادة الأوثان وتَقديس الأشخاصِ والأفكار وروح العصر والصوابيّة السياسية.

ولو كان اليهود ممن يسبحون مع التيّار ويتّبعون القطيع لاختَفوا من الوجود واندثَروا منذ زمنٍ طويل، خاصة وأنهم كانوا أبناء الديانة التوحيدية خلال فترة عهد التّناخ** حينَ كانت عبادة الأوثان المُعتقدَ الأكثر رَواجاً وقبولاً، وفي الفترة اللاحقة لعهدِ التّناخ عاشوا في مُجتمعات كانوا بمثابة الأقلية الدينية فيها. بالتالي فإن الديانة اليهودية تعتبرُ مثالاً حياً على كيفية التمرّد على سلوكِ القطيع والتّيار السائد في المُجتمعات البشرية. إنها الصوت المُعارِضُ لإجماعِ البشر حين يكون موضوع

النقاش غيرَ سَوِيّ. كما أن الأخلاقيات اليهودية لا ترتبطُ أبداً بالمظهر الخارجي أو بالشرف والعار، بل ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بالسّمع والإصغاء لصوتِ اللَّه سبحانه وتعالى الكامنِ في أعماق أرواحنا.

إن قصة آدم وحَقاه في الحقيقة لا تتعلّق بالثمرة أو الجنس أو أول معصية ارتكبها الإنسان أو حتى بنزولِهما من الجنة أو غيرها من التأويلات والتحليلات الغربية غير اليهوديّة لهذه القصة، بل إنها تتعلّقُ بأمر أعمق بكثير من تلك الأمور السطحية: إنها تتعلّق بطبيعة الأخلاق التي ينبغي أن نمتثل لها، إنها تتعلق بإجابة هذا التساؤلات الفلسفية: هل نحن محكومون بما يفعله غيرنا من البشر؟ وهل مسألة الأخلاق مُرتبطة بما يفعله الأغلبية، شأنها في ذلك شأن السياسة؟ وهل تُحدِّد قضيّة الشرف والعار - باعتبارهما مشاعر اجتماعية بَحتة - آفاقنا العاطفية؟ وهل يُعَدّ مظهرُنا الخارجي وصُورتنا في عيون الآخرين، أُساساً لقيمنا وأَخلاقياتنا؟ أم أن هنالك أُسساً أخرى أهم من ذلك بكثير علينا أن نلتفت لها، مثل النيّة للإصغاء إلى كلام اللَّه سبحانه وتعالى وصوتهِ ومشيئته؟

لقد كان أمام آدم وحَقاه خياران اثنان: إما أن يتّبعا ما تراه عيونهما، أي الشجرة وثمارها، أو الإصغاء لكلام الله، أي أمره لهم بعدم الاقتراب من الشجرة، وهما خياران نموذجيّان ونمطيان ويُشكّلان أساساً من أسس صراعِنا في الحياة البشرية. وقد اختارا اتّباع ما يريانه بعيونِهما، مما يعني سيطرة الشعور بالخزي عليهما. إن هذا القرار يُعتبر معرفةً وإدراكاً للخير والشر بشكل أو بآخر، لكن من المنظور اليهودي يُعتبرُ اختيارهما خاطئاً.

إن الديانة اليهودية - مثلما ذكرت سابقاً - هي ديانة تقوم على الإصغاء، لا على الرؤية، وهذا لا يعني بالضرورة عدم وجود مظاهر خارجيّة ملموسة في الديانة اليهودية، لكنها ليست أركاناً رئيسية فيها، لأنّ الركنَ المُقدّسَ فيها هو الإصغاء، خاصة وأن أحد أهم الأوامر والوصايا الإلهية لليهود هي "شمَع يِسرائيل"، أي "**إسمع يا** يِسْرائيلُ – أو **إعلَم** يا يِسْرائيلُ – أنّ اللّهَ ربُّنا، اللّهُ الواحِدُ" تبعاً للآية الرابعة من المقطع السادس من سِفرِ التّثنية، وهي آية تُرَدّدُ مراراً وتِكراراً في الصلوات اليوميّة لليهود. أضِف إلى ذلك أن أحد أبرز الأمور التي جعلت أفرهام وموشيه يتميّزون عن أقرانهم من الرسل والأنبياء هو أنهم سمِعوا ذلك الصوتَ الإلهيّ الذي كان بالنسبة للآخرين غيرَ مسموع أبداً. وفي أحد أكثر المشاهد إثارة في كتاب التناخ، يُعلِّم اللَّه عزّ وجلّ نبيه إلياهو /إلياس في الآية الثانية عشر من المقطع التاسع عشر من كتاب الملوك الأول، بأنه لن يجِدَ الصّوتَ الإلهيّ في العواصفِ والزلازل والبراكين، بل سيسمعُ ذلك الصوتَ الإلهيَ الخافِتَ بين ثنايا الهدوء والصّمت والسكون.

إن الوصول إلى حالة سكونٍ وهدوءٍ داخليّ تسمح للمرء بالإصغاء هو أمرٌ يتطلّب قدراً كبيراً من التمرين والتركيز. فالرؤية تُبيّنُ لنا جمال وروعة الخلق في العالم، في حين أن الإصغاء يُمكّننا من الاتصال روحياً بالآخرين، وفي كثير من الأحيان يصِلنا روحياً باللَّه عزّ وجلّ ويُمكّننا من سماع صوته حين يُخاطبنا طالباً منّا أن نؤدي مهامّنا وواجِباتنا في هذا العالم.

ولو وُجِّهَ إليَّ هذا السؤال: كيف أجدُ الله؟ لأجبتُ قائلاً: "تعلّم كيفَ تسمعُ وتُصغِي"، أصغِ إلى صوت الكون في زقزقة العصافير وحفيف الأشجار وتلاطم الأمواج. أصغِ إلى شِعرِ الشعراء وموسيقى سِفرِ المزامير. أصغِ بعمقٍ إلى أولئك الذين يحبّونك وتحبّهم، أصغِ إلى كلام اللَّه عزّ وجلّ في التوراة وأَنصِت جيّداً إلى آياتها وهي تخاطبك. أصغِ إلى نقاشات الكهنة والحاخامات على مرّ القرون وهم يُحاولون الإصغاء إلى حَميميّة وعاطفيّة النصوص التوراتية وثناياها.

أخيراً وليس آخراً، إياك أن تأبه بصورتِكَ في عيون الآخرين، لأن عالم المظاهر الخارجية هو عالم زائفٌ تملؤه الأقنعة والسواتر والتخفّي. كما أنني أعترفُ بأن الإصغاء ليس بالأمر الهيّن على الإطلاق، بل إنني أجدهُ أحياناً في غاية الصعوبة، إلا أننا عندما ننجحُ ونتمكّنُ من الإصغاء فإننا سنتمكّن من جَسرِ الهُوَّة بين أرواحنا وبين اللَّه عزّ وجلّ.

بالتالي فإن الأساس الروحيّ للديانةِ اليهوديّة قائمٌ على إتقانِ فَنِّ الإصغاء. [3]

*** مُلاحظة توضيحية من المُترجم:**

يُعدّ موضوع خلق الله للإنسان على "صورته وشبهه" محطّ نقاشٍ وجدال على مرّ التاريخ اليهوديّ، وقد ذُكر هذا الموضوع أيضاً في بعض الأحاديث النبوية الإسلامية، ولكنّنا نَوَدُّ مناقشتها انطلاقاً من وجهة نظر يهوديّة. وقد تطرّق الحاخام الراحل جوناثان ساكس- طيب الله ذكر - كبير حاخامات إنجلترا، إلى هذا الموضوع في عدّة مقالات تتعلّق بالنصّ الأسبوعي "بريشيت" يمكن إيجادها في موقعه الرّسمي، منها مقال "كتابٌ حيٌّ"(A Living Book) وآخر يُدعى "مراحل الخلق الثلاثة" (The Three Stages of Creation).

يُعدّ الإنسان العاقل (الاسم البيولوجيّ للنوع البشريّ) من وجهة نظرٍ يهودية مزيجاً فريداً من "تراب الأرض" و"نَفَسِ الله"، ممّا يجعله منفرداً ومميّزاً عن باقي الخلائق، حيث أن وجوده لا يرتكز على جوهرٍ واحدٍ مثلهم وامتلاكه حرية الاختيار.

إن التأكيد على أهمية حرية الاختيار والحرية بشكل عامّ وكذلك التأكيد على أهمية المسؤولية، يُعتبر من أبرز مميّزات الفكر اليهوديّ. فالقول بأن الله عز وجلّ قد خلق الإنسان على صورته أو شبهه يُشكّل تناقضاً بحد ذاته، لكونه يتعارض مع ما أكّدت عليه التوراة مراراً وتكراراً بأن الله ليسَ له صورة على الإطلاق، وهذا ما تؤكد عليه الآية الرابعة عشرة من المقطع الثالث من سفر الخروج: "أكون ما أكون" في ردّ من الله على موسى/موشيه حين سأله عن اسمه. إن الله عز وجلّ يتعدّى حدود الطبيعة، وهذه هي النقطة التي تؤكّد عليها قصّة الخلق في سفر بريشيت/التكوين، فالله مُطلق الحرّية وغير خاضع لأيّ من قوانين الطبيعة. وبخلقه الإنسان على صورته فقد منحنا بذلك الحرّية، وبالتّالي فقد خلق الإنسان بصفة في قمّة التميّز وفي قدرته على الخلق والإبداع، الأمر الذي يفسّر قدرة البشر على التغيير والتطوير الذاتي.

إن الكلمات هي أسمى أشكال الإبداع، وليست التكنولوجيا ولا العلوم، فمن خلال الكلمات فقط خلق الله هذا الكون بكلّ مخلوقاته. وعلى غرار ذلك فإن ما يميّز الإنسان العاقل عن الحيوانات الأخرى هو قدرته على الكلام، فقدرتنا على الكلام تمنحنا القدرة على التفكير الذي بدوره يجعلنا قادرين على تصوُّرِ عالمٍ آخر ومُختلفٍ عن هذا الموجود حالياً.

إن أول مرحلة في الخلق هي الكلمة الخَلّاقة، أي الفكرة والرؤية والحُلم. واللغةُ بجانب القدرة على تذكر ماضٍ بعيد وتخيّل مستقبلٍ أبعد، هُما أمران موجودان في صميم تميّزنا كوننا خُلِقنا بشكل منفردٍ على صورة الله وشبهه.

لكنّ القدرة على خلق أشياء جديدة ليست القدرة الوحيدة التي أنعم بها الله على الإنسان".

وكان هذا الأمر الذي علّمنا إياه كبار حاخامات اليهود منذ القدم: "مثلما يتّسم الله عز وجلّ بالكَرم، عليكُم أنتُم أيضاً أن تكونوا كُرماء، ومثلما يتّصف عز وجلّ بالرّحمة، فعليكُم أيضاً أن تكونوا رُحماء. ومثلما يتصفُ الله عز وجلّ بالقَداسة، فعليكُم أن تكونوا مُقَدَّسين". كما نرى جليّاً كيف وَصَف الأنبياءُ اللّهَ عز وجلّ بالصّفات التالية: "الطّائِقُ والمُحسِنُ والصّالِحُ والأمينُ والكامل والجَبّار والقويّ وغيرها من الصفات. والهدف من وراء وصف الأنبياء لله عز وجلّ بهذه الصفات هو أن يعلّمونا بأن هذه الصّفات جيّدة وصالحة، وعلى الإنسان الملتزم أن يتّصف بها، واتصافه بها سيجعل الإنساني يقتدي بالله عز وجلّ قدرَ المُستطاع (بحسب ما وضحهُ الحاخام موشيه/موسى بن ميمون في كتاب "مِشنيه توراة"، باب هِلخُوتْ دِعوتْ 1:6).

وفيما يلي، نذكر بعض الخِصال الخاصة والمميزات التي يتمتّعُ بها الإنسان دون سائر المخلوقات الأخرى، ومن خلال هذه الميزات تظهرُ الغاية من وجود الإنسان. وهذه الخصال هي: **القدرة على الكلام، والقدرة على التفكير، والقدرة على إدراك الذات، والقدرة على الخلق والإبداع، وحرية الاختيار، والحس الأخلاقيّ.**

الخلاصة: إذا كانت هذه الافتراضات صحيحة بالفعل، أي أن هذه الخصال والمميزات الستة تُميزُ الجنس البشري عن سائر المخلوقات، وأنها الشروط الستة ذاتها التي تتطلّبها لتحميله المسؤولية الأخلاقيّة (وهي الصفاتُ الستة لصورةِ الله التي خُلقَ الإنسان بها)، فإنه من المنطقي أن نستنتج بأن الغايةَ من وجود الإنسان هو أن يستخدم تلك الخصال الستة ليعيشَ ضمن منظومة أخلاقيّة، ويُصبح خاضعا لمسؤولية أخلاقية تؤطّر سلوكياته. وفقط حين يتصرّف المرء على هذا النّحو، فحينها فقط يُصبح **إلى حدٍ ما** "على شَبَهِنا"، أي شبيهاً بعض الشيء باللهِ عز وجلّ، والشبه هُنا يعني تمتّع الإنسان بجزء محدود من صفات الله السامية والكاملة: مثل الصلاح والإحسان والصدق والرحمة والحنان.

** **مُلاحظة توضيحية من المترجم: التَّناخ** هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نڤيئيم، كتوڤيم"(أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهوديّ المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخُروج وسِفر اللاويين وسِفر العدد وسِفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سِفر يوشَع، وسِفر القُضاة وسِفر صموئيل الأول والثاني وسِفر المُلوك الأول والثاني وسِفر إشعياء وسِفر إرميا وسِفر حزقيال، وسِفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمّ الهاغوغرافا، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمّ أحد عشر كتاباً، وهي سِفر المزامير، وسِفر الأمثال، وسِفر أيوب، وسِفر روث (راعوث)، وسِفر نشيد الإنشاد، وسِفر الجامِعة، وسِفرُ مراثي إرميا، وسِفر أستير، وسِفر دانيال، وسِفر عِزرا ونحميا، والجُزء الأخير من التَّناخ يضم أسفارِ تدوين التاريخ. بالتالي يضمّ التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سِفراً (كتاباً).

---

1. الحاخام موشيه بن ميمون، كتاب "دلالة الحائرين" - الجُزء الأول من الفصل الثاني.
2. روث بنِديكت، كتاب "الأقحوان والسيف" (بوسطن، هوتون مفيلن هاركورت، 1946م).
3. لقراءة المزيد حول هذا موضوع الإصغاء في الديانة اليهودية يُمكنكم زيارة موقع (https://www.rabbisacks.org/) لقراءة تعاليم وتفاسير الحاخام جوناثان ساكس، تحديداً مقالة "صوتُ السكون" التي يشرح فيها نص القراءة الأسبوعي بَمِدبار من سِفر التثنية، ومقالة "روحانيّة الإصغاء" التي يشرحُ فيها نصّ القراءة الأسبوعي براشوت عِقِب.

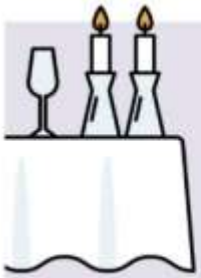

حَولَ مائِدةِ يومِ السّبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَّأمُلِ

1- هل بإمكانك التفكير في بعض الامثلة لشخصيات يهودية تاريخية أثبتت مدى ارتباط اليهودية بثقافة الذنب وليس بثقافة الشرف او العار؟

2- كيف يُعتبرُ الإصغاء من القيم اليهوديّة الهامّة؟

3- ما هي الدروس والعِبرُ التي بإمكانك استخلاصها وتعلمها في حياتك من خلال إدراكِك للفرق بين الشعور بالخزي او العار والشعور بالذنب؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/bereishit/the-art-of-listening/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*